الكتابة بقلم حبر ناشف

فيصل خرتش

استطعتُ مرّات عديدة أن أَهْرب من الكتابة البليدة، التي تَحْتاج إلى قلم رصاص ومبراةٍ جيّدة. هذه الطريقة تتطلّب الكتابةَ بعنايةٍ وحصافةٍ وحسنِ اختيارٍ للجمل والمفردات والصور وغيرها، وتتطلّب كذلك الوقوفَ عند الفكرة ومداورتَها والبحثَ عمّا يلائم وما لا يلائم. لذلك ألغيتُ القلمَ الرصاصَ واستعضتُ عنه بالقلم الحبر الناشفِ السريعِ، الذي يجعلني أستمتع بالكتابة من دون توقُّف أو ملاحقة، فتنصبّ الأفكارُ بغزارةِ المطرِ السريع كما هي، ومن غير أن أجاملَها وأضيفَ عليها المساحيقَ من أجل تزويقها وتلميعها. وعليه، صارت الكتابةُ «دفعة واحدة،» تكون كما نعمةُ الخلق الأولى... على الأقل من دون مجاملات.

أكلتُ إذًا من التفّاحة المحرَّمة. استمتعتُ بلذّاتها. ولكنْ قبل أن أصل إلى النشوة، تناولني سيفُ الرقيب وراح يَبْتر أصابعي الواحدة تلو الأخرى، ولم يبقَ لي سوى إصبعين لا أزال أتمسّك بهما كي أستمرّ في الكتابة.

في بداية التدريب على صنعة الكتابة، لم تكن لي الخبرةُ الكافيةُ للزوغان من بين براثن الرقيب. فكان يصطادني بسهولة، ويُمْسك بي من أصابعي ليضعني في القمقم الزجاجيّ، ويجعل الآخرين من عديمي الموهبة يتفرّجون عليّ.

إنّ أولئك الكتّاب الذين يتناولون الموضوعات السهلةَ المألوفةَ المكرورةَ سيكونون حتمًا خارج دائرة الرقابة والرقيب، وسوف تُبَارَكُ أعمالُهم لأنّها تمجّد الوطنَ وانتصاراتِه على أعدائه الأشاوس. إنّهم يَرْفعون رايةَ الوطن عاليةً خفّاقةً، يعدّدون الإنجازات الهامّة التي تحقّقتْ، ويَضْربون بيد من حديد على كلِّ مَنْ تسوّل له نفسُه أن ينال من سمعة البلد. أمّا المُفْسدون في الأرض (نحن)، الذين يتعرَّضون للفساد والمفْسدين ولكلِّ ما يشين إنسانيّةَ الإنسان ويشوّهها، فسوف يلاحَقون وتُمْنعُ أعمالُهم من الطباعة أو التداول، حتى يعودوا إلى الطريق القويم.

◆ ◆ ◆

في عام ١٩٧١ تنازلت الدولةُ عن حقّ رقابة الأعمال الأدبيّة إلى الكتّاب أنفسهم، كي يكون ظلمُ ذوي القربى أشدَّ مضاضةً. وصارت المخطوطاتُ تمرّ عبر عدد محدّد، يتمّ اختيارُهم من بين الكتّاب ـ أصحابِ السطوة والفهم العميق لأهداف الأمّة في التصدّي للإمبرياليّة والاستعمار والصهيونيّة والرجعيّة والطائفيّة والعشائريّة، ولكلِّ ما من شأنه أن يعوّق المسيرةَ التاريخيّةَ في التطوّر والنموّ والازدهار. هذه المخطوطات تُرسل إلى قرّاء الرقابة، وقد تطول فترةُ إرسالها بالبريد المضمون أكثرَ من سنة، ثم تعود مع عدم الموافقة على نشرها لأنّها تخالف الأهدافَ العامةَ التي وضعها الكتّابُ أنفسُهم قبل ما يقارب نصفَ قرن.

المشكلة تَكْمن في المزاجيّة التي تَحْكم القارئَ الرقيبَ. فغالبًا ما يكون جاهلاً، من المنتسبين القدماء، ولا يَدْري إلى ما آل إليه إبداعُ الكون. وقد يكون عديمَ الموهبة، يجتزّ رأسَ كلِّ مَنْ يملك وإنْ قليلاً من الموهبة والإبداع.

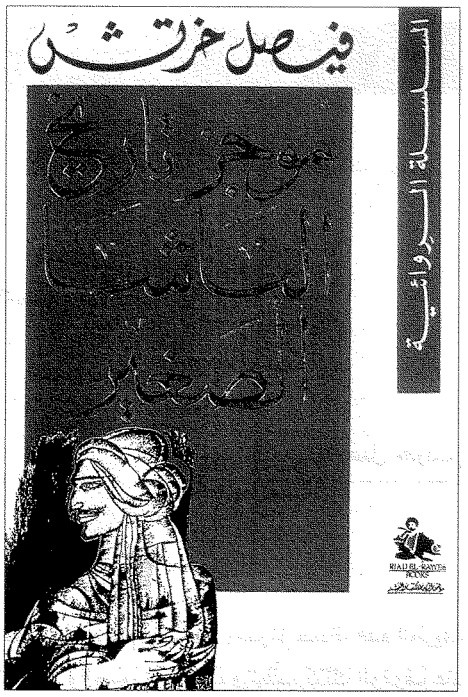

كتابي هذا مَنِع في بلدي

هذه الرقابة تَخْتلف من بلد عربيّ إلى آخر، ومن رقيب إلى آخر. فقد رُفضتْ لي إحدى المخطوطات مرةً من قبل ثلاثة قرّاء. ثم غَيّرتُ العنوانَ، وأعدتُها إلى الجهة الرقابيّة، فمُنحتُ الموافقةَ بسهولة. وهذا يَعْني أنّ الأمر خاضعٌ لمزاجيّة القارئ الموكّل بهذه المهمّة، ولا علاقة لبنود الممنوعات المسطّرة على القائمة.

تعود المخطوطةُ وقد زُيّنتْ سطورُها باللون الأحمر المتعرّج، وعُجّتْ حواشيها بالملاحظات التي تَمْنع كلَّ كلمة تمسّ الثالوثَ المحرَّم. وغالبًا ما يحاول الكاتبُ من خلال الرقابة الذاتيّة أن يَمْنع نفسَه من الخوض في الجنس، الذي قد يصل إلى حدّ الابتذال والابتعاد عن الدين، وبخاصةٍ ما يمسّ مشاعرَ الناس أو ما يُحدث فتنةً طائفيّةً. ومن الطبيعيّ ألاّ يتعرّض لكلّ ما يمسّ الحكّامَ ومَنْ يلوذ بهم. ولكنّ المشكلة تَكْمن في تفسير الرقيب وخوفِه من المساءلة ـ فلكي لا يتعرّض للمساءلة، فإنّه يميل إلى أهون الشرين، وهو المنع من الطباعة، وكفى اللّه المؤمنين شرَّ القتال.

◆ ◆ ◆

أدخلتُ في إحدى الروايات قصةَ امرئ القيس، في ذلك اليوم عندما عَقَرَ للعذارى مطيَّتَه. وقد سردتُها نثرًا، كما هي، إلاّ من بعض التدخُّلات البسيطة. فما كان من الرقيب الغيور على أعراض نساء الأمّة إلاّ أن شكّلَها بالأحمر، ووَضَعَ عليها خَتْمَ المنع. ولكنّ القصّة كانت قد مرّت على آلاف الرقباء عبر ١٤ قرنًا ولم تُمنع. فهل كان الرقيبُ في العصر الجاهليّ أكثرَ فهمًا واستيعابًا وإدراكًا لعصره من رقيبنا العتيد؟ وما بالُكَ بكتب الجاحظ وأشعار المجّان وأبي نواس وبشّار بن برد و**ألف ليلة وليلة** والكتبِ الكثيرةِ التي أُلّفت للخلفاء والأمراء من أجل المسامرة وتقويةِ الباه؟

◆ ◆ ◆

إنّ الخوف من عدم الموافقة يَجْعل الكاتبَ رقيبًا على ذاته: يَحْذف ويقصّ ويُلغي ليُخْرج نسخةً مشذّبةً، خاليةً من الدسم، فيجلس في رأسه رقيبًا ليرضي الرقيبَ الآخر، وتكون النتيجةُ الرفضَ بسبب الرداءة الفنيّة ! وبذلك يكون القارئُ الرقيب طاووسًا على الكاتب الذي تَحَوّل إلى غراب منتوف الريش، لا يَمْلك إلاّ صوتًا أجشَّ يَنْعق به في أروقة المؤسّسات الرسميّة.

طبعًا هذا كلُّه قبل طباعة المخطوطة. فإنْ طُبعتْ في أيّ مكان على وجه الأرض، في الداخل أو الخارج، فهناك أيضًا ختمُ السماح بالتداول، أو المنع من التداول. وخلاصة هذه المسيرة: قد تمرّ سنتان أو أكثر قبل أن يعلّقَ الكتابُ على واجهات المكتبات ويصبحَ من الكتب «المعلوكةِ» الأفكارِ التي لا تُقرأ بسبب قِدَمِها الوظيفيّ وانتهاءِ صلاحيّتها.

◆ ◆ ◆

لا يَخْتلف اثنان على أنّ الإبداع هو الحريّة. ولا يُمْكن للمبدع أن يَخْترق المألوف إلاّ إذا توافرتْ له شروطُ الحريّة بصوت مرتفع، فيكتب ما يريد في الموضوع الذي يختاره من دون وصاية ولا رقابة من أحد، حتى ولا من نفسه، كي يكون لنا أدبٌ حقيقيّ لا يتغذّى على فضلات الآخرين: فلا يأتي فكرٌ سلفيٌّ ليشدّه إلى الوراء قرونًا، ولا يأتي فكرٌ إيديولوجيّ يلوي ذراعَه باتّجاه الواقعيّة الستالينيّة، وآخر يقبره في الشرق أو في الغرب. هناك أدب واحد فقط، هو الذي يَسْعد بالانطلاق والحريّة، ويحلّق عاليًا متجاوزًا كلَّ ما يعوقه عن الإبداع. وهذا لن يكون إلاّ باقتلاع ثقافة الرقيب وتخليص الإبداع من سطوته. ولن يكون ذلك إلاّ بتغيير نمط إنتاجنا المنحطّ للثقافة.

حلب

فيصل خرتش

قاصّ وروائيّ سوريّ. من أبرز أعماله: **الأخبار**، و**موجز تاريخ الباشا الصغير** (مَنِع)، و**شجرة النساء**، و**حمّام النسوان**. تحوّلتْ روايتُه **تراب الغرباء** إلى فيلم سينمائيّ أخرجه سمير ذكرى